الحيـــاة التناسلية
والتحليل النفسانى

للدكتور فضـــل أبو بكر

مما يؤسف له حقاً أننا قلما نعالج مثل هذه الموضوعات فى بلاد الشرق ، وإذا تعرضنا لها بعض الأحيان نمر عليها مراً سريعاً خاطفاً وبكثير من التحفظ . كذلك نشرح هذه الحياة للشبان والشابات فى سن المراهقة وما قبلها بنفس ذلك التحفظ متحاشين ما استطعنا الخوض فى الحياة التناسلية من حيث التكوين التشريحى والوظائف الفسيولوجية لتلك الأعضاء وما ينتاب تلك الحياة من أمراض جسمانية هى الأمراض التناسلية ، ومسخ نفسانى هو الشذوذ التناسلى وما يترتب على كل هذه الطوارىء من أضرار ، وما عسى أن يتخذ من الحيطة والتدابير لإتقاء شر هذه الأمراض بمختلف أنواعها كما أن هذه التبعة تقع على كاهل الوالدين والمعلمين.

هذا التقصير ناشىء من اعتبارنا — خطأ — أن مثل هذه الحياة سرية ، ومن هنا أطلقنا وما زلنا نطلق على الأمراض التى تنتابها فى معظم الأحيان بالأمراض السرية ، وفى قليل من الأحيان بالأمراض التناسلية ، مع أن التسمية الأولى هى تسمية خاطئة ومضرة فى الوقت نفسه . وما زال بعض الناس يقدسون سرية هذه الأمراض ويرفعونها إلى مستوى « سر المهنة » وينكرونها نكراناً باتاً على الطبيب المداوى نفسه ويضللونه تضليلاً يعقد الأمر ويزيد فى إشكاله من حيث تشخيص المرض . وقد تحاوره وتحتال عليه بشتى الحيل ليبوح لك بالسر الرهيب وتفهمه بأن سر المهنة يقضى عليك بألا تبوح بشىء مما يدلى به المريض فى مثل هذه الأحوال حتى إلى أقرب الناس إليك أو أقربهم إليه ؛ كما أنه فى حالة الإفشاء يمكنه مقاضاتك والاقتصاص منك بواسطة القانون . وقد تلين قناته ويأنس إليك فيقص عليك حقيقة الأمر فى بعض الأحيان كما قد يستمر فى نكرانه وتضليله . غير أنه من حسن الحظ أن مضاعفات المرض نفسه ، وما تتركه من آثار باقية ، والنتائج التحليلية للفحص ، كل ذلك كفيل بفضيحة الأمر وإفشاء السر فى معظم الأحيان .

إن سبب هذا النكران يرجع إلى عدة عوامل منها « الحياء » ، والحياء من الإيمان كما يقول الحديث وهو ركن حصين ودعامة قوية من دعائم الأخلاق بلا شك ؛ غير أنه فى مثل هذه المناسبات يكون الحياء مستعملا فى غير موضعه ، أو استعمل استعمالا خاطئاً للأسباب التى سبق ذكرها . ومنها أيضاً عادة « احترام النفس » وهو شعور طبيعى فى الإنسان ويجب تشجيعه وتنميته فى كل نفس ؛ غير أنه من غير المعقول أن يفقد المريض قيمته أو ينحط قدره فى نظر الطبيب إذا عرف أن مريضه مصاب بمرض تناسلى ؛ حتى ولا فى نظر المجتمع — إذا أنصف المجتمع — لانتشار هذه الأمراض . ومن ضمن هذه الأمراض ما يسمونه « بمرض الأبرياء » وخاصة مرض الزهرى ؛ فقد يصاب به الإنسان أحياناً من طريق غير الطريق التناسلى أو المخالطة الجنسية كما يشاهد ذلك فى أكثر من مرة . كما قد يكون سبب التكتم من ناحية المريض هو عدم ثقته بالطبيب ، واتهام مقدرته على كتمان السر ، وأن فى إذاعة هذا السر مثلا كل عائلية ومضار تسبب للمريض — وهذه أيضاً حجة واهية ووهم لا محل له إلا فى ذهن المريض ؛ إذ أنه ما من طبيب يحترم مهنته ويقدر مسئوليته تسول له نفسه إفشاء مثل هذه الأسرار . ثم أنه من غير المعقول أن يلجأ المريض إلى طبيب لا يثق به ؛ إذ فقدان مثل هذه الثقة قد يكون مصحوباً بالشك فى العلاج نفسه وفى مقدرة الطبيب . ومن هنا ينتج فقد الإيمان والاعتقاد وما يترتب على ذلك من « إيحاء » — هذا الإيحاء هو عنصر نفسانى هام يساعد على الشفاء ويزيد فى مناعة الجسم وحيويته فى نضاله ضد الأمراض . كذلك جهل المريض بما سوف يترتب عليه من عواقب وخيمة وأضرار لنفسه أو لمن يعيشون حوله ؛ كما أن هنالك خصلة مكروهة وعادة ذميمة هى عادة الكذب الذى يلجأ إليه الكثيرون من غير ما حاجة ماسة كما قد أصبح للبعض الزم لهم من الخبز اليومى .

لا نقصد مما سبق ذكره أن المريض بهذه الأمراض التناسلية يحتم عليه إذاعتها فى المجالس والمنتديات أو على صفحات الصحف أو يتخذ منها مادة للسمر والتندر ؛ لا نقصد إلى شىء

من ذلك بل نقول بالعكس من ذلك بضرورة التستر — « وإذا بليتم فاستتروا » كما تقول الحكمة ولكن الذي نريده وننتظره من المريض هو عدم مراوغة طبيبه وتضليله كما نطالبه باتخاذ ما يلزم من الاحتياط حتى يحول دون انتشار العدوى لغيره من الناس .

إن مشكلة الحياة التناسلية ولاسيما تحليلها من الوجهة النفسانية مشكلة عويصة معقدة . وقد شغل هذا الموضوع الحيوي حيزاً كبيراً من تفكير أطباء الأمراض بالحياة العصبية والتناسلية وتأثر كل منهما بالآخر . ومن أهم من عنوا بالتحليل النفساني « Psychanalyse » هو العالم النمسوي المعروف « فرويد » « Freud » الذي كان أستاذاً في جامعة فينا والذي يعد أكبر مرجع لهذا النوع من التحليل ، كما أنه امتاز بعمق التفكير والتأويلات البعيدة المنطقية ، وبالشجاعة في إبداء آراء جريئة . وقد عانى من ذلك كثيراً ورماه البعض بالغلاة ، كما أن هنالك اعتبارات أخرى من سياسية وعنصرية ، إذ كان من أصل يهودي . كل ذلك سبب له مشاكل ومتاعب ، وشعر بالاضطهاد أخيراً مما أجبره على مغادرة النمسا والالتجاء إلى انجلترا كما لجأ إليها ابن عم له من قبل هو « كارل ماركس » إذ طرد من ألمانيا لأسباب مشابهة .

تظهر الغريزة الجنسية عند الطفل في طور مبكر جداً كما يقول العالم المجري « لندنر » « Lindner » يقول هذا العالم أن عوارض الغريزة الجنسية ترجع إلى عهد الرضاعة ؛ فهو يرى في الرضاعة عملية حيوية بالنسبة إلى الطفل ؛ إذ تدر عليه اللبن اللازم لقوته ، والذي لا تكون حياة من دونه ، وتهديه إلى البحث عن هذا اللبن غريزة حب النفس وتنازع البقاء . غير أن « لندنر » « وفرويد » يقولان إن الطفل يشعر أثناء وقت الرضاعة بشعور خفي ولذة ظاهرة هي إشباع الغريزة التناسلية واللذة التي تنتج من إجابة هذه الغريزة ؛ فتراه بعد أن يأخذ كفايته من اللبن لا يلذ له النوم إلا وهو يمسك بفمه ثدي أمه في نشوة ظاهرة وشعور بالطمأنينة ؛ حتى إذا نعس الطفل قليلا نجده يبحث عن عضو آخر مثل إبهام يده أو غيره من أجزاء الأعضاء ليمسه واجداً في ذلك لذة كبيرة هي — حسب ما تقدم — لذة جنسية . لذلك أطلق على منطقة الفم والشفتين « بالمنطقة الجنسية » « Zone Erogéne » كما ذهب فرويد إلى أبعد من ذلك بقوله أن هنالك منطقة جنسية ثانية توجد في الدبر وهو يرى في عملية التبرز عند الطفل لذة تناسلية كما يقول فرويد إن هذه اللذة ما زالت آثارها كامنة عند الكبار بقوله أن الشعور الخفي بالراحة والرضى بعد أداء عملية التبرز ولا سيما بعد الإمساك الذي ينتج عنه تصلب في المواد البرازية . هذا الشعور من المعقول جداً أن يكون سببه خلاص الجسم من مواد غير مرغوب فيها كما أن في بقائها بالجسم أكثر من اللازم ضرراً بالجسم ؛ غير أن هذا الشعور لا يأتي فقط من الأسباب المذكورة ؛ ولكنه يكون مصحوباً في الوقت نفسه بشعور داخلي خفي منشؤه إشباع نوع من الغريزة الجنسية وما يصحب ذلك من لذة وراحة

ذكرنا في المثالين السالفين بدأ الحياة التناسلية عند الطفل ولكنه بدأ شاذ ، فالحياة التناسلية تبدأ بالشذوذ ولما يبلغ الطفل الثالثة من عمره ، يبدأ اهتمامه بتكوينه التناسلي ويستعرض فضوله وجود الأعضاء التناسلية في جسمه وأن كان يجهل ماهيتها وما خلقت من أجله ؛ غير أن الطفل من غير شك يبدأ بمداعبة أعضائه التناسلية فيحدث عنده لذة جنسية . ويعتبر هذا مثل ثالث آخر للشذوذ التناسلي « Perversion Sexuelle » نسميه شذوذاً تناسلياً لأن الحياة التناسلية الطبيعية السليمة الطبيعية هي البحث عن مثل هذه الملاذ الجنسية عند جنس مضاد — ذكر وأنثى — بالاختلاط الجنسي . وقد يكثر الطفل من مداعبة تلك الأعضاء بعد أن يشعر بنوع من اللذة فيستدعي ذلك اهتمام والديه فيمنعونه عن عمله الشاذ بشتى الطرق من ترهيب وترغيب ؛ غير أن المنع لا يجيء في نفسه ذلك الشعور وربما يزيده ويزكيه فيشعر بشيء من الغبن ويسبب له هذا المنع مركباً نفسياً ضمن المركبات النفسية الكثيرة وهو ما يسميه فرويد « بمركبات الخصيان » « Complexe de Castraction » وهو الشعور بالغبن لدى الخصيان الذين حرموا ملاذ الحياة التناسلية .

هذا ويؤكد فرويد أن أول ما يبدأ الطفل حياته التناسلية العادية إنما يبدأها بالشعور الجنسي نحو أمه . وهذا الشعور شاذ فيما يتعلق بالعرف والمجتمع ولكنه طبيعي فيما يتعلق بالغرائز الجنسية

بكونه شعوراً نحو جنس مضاد لجنسه كما توجد مثل هذه الغريزة فى الطفلة بالنسبة لأبيها ، وهو شعور أشبه بالجذب والتنافر بين الأقطاب فى عالم الكهرباء والمغناطيس .

لا يمكن لأحد أن ينكر الشعور الطبيعى للأطفال نحو والديهما وما فيه من حب طاهر برىء ؛ ولكن براءة هذا الحب لا تنافى وجود الغرائز وسلطانها . وقد نسمع بعض الأحيان أن الطفلة تريد الزواج من أبيها ، والطفل يرغب أمه ؛ كل ذلك فى سن مبكرة بين الثالثة والرابعة مثلا ، فيثير ذلك تسلية للوالدين وعطفاً على الأطفال لهذه السذاجة البريئة . وقد وصف هذه الظاهرة فرويد وسماها « مركب أوديب » « Oedipe Complexe » وأديب هذا كما تقول الأسطورة الإغريقية كان مليكا ظالماً جباراً ؛ وقد أنبىء بأنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه وذلك من حيث لا يعلم . ولما كان قد فارق أبويه فى سن مبكرة وانقطعت كل الصلات بينه وبينهم فإنهما لا يدريان عن أمره شيئاً . وفى ذات مرة أمر بقتل رجل كعادته فى قتل الرجال ، كما أخبره ذات مرة أحد أفراد حاشيته بوجود امرأة جميلة فى مكان ما ؛ فأمر فى الحال باحضارها وتزوج منها . ولم يمض إلا وقت قصير حتى تبين له بأن المقتول لم يكن غير والده وأن الزوجة لم تكن غير أمه . وهكذا حلت به الكارثة وصدقت النبوءة فحزن أوديب حزناً شديداً وعاقب نفسه على ذلك بأن فقأ عينيه الإثنتين . وقد اتخذ الأدباء والشعراء من مأساة أوديب مادة خصبة دسمة مثل « سوفوكليز » و « إيورد بديز » وغيرهما من شعراء الأغريق .

أما الحياة التناسلية السليمة « والمنتجة » فهى تبدأ بعد البلوغ إذ يكتمل تكوين هذه الأعضاء تشريحياً وتهيأ لأداء رسالتها فسيولوجيا بالتلقيح الذى ينتج النسل .

وقد يطرأ انحراف الحياة التناسلية فيطبعها بطابع المسخ والشذوذ وهذا المسخ قد يكون مخففاً أو كاملاً حتى لدى من يتمتعون بحياة تناسلية طبيعية . وقد تستحكم حلقات هذا الشذوذ ويظهر جلياً عند ضعفاء العقول والمصابين بالإنحلال الذهنى تساعد على ذلك الوراثة المثقلة مما يجنيه الآباء على الأبناء ، كما أن هذا الشذوذ قد يؤدى إلى أمراض عقلية واختلال فى التوازن الذهنى الذى بدوره يساعد على تكون هذا الشذوذ ؛ وهكذا كل منهما يساعد على حدوث الآخر فى شبه « دائرة خبيثة » .

غير أن هذا الشذوذ — من سوء الحظ — ليس محصوراً فى ضعاف العقول ولكن قد يصاب به بعض المفكرين والشعراء وغيرهم ممن يتمتعون بحياة اجتماعية كبيرة عالية ؛ ولكنا إذا درست حياة أولئك الكبراء والمفكرين ورافقتها عن كثب وجدت أن ذلك الشذوذ قد يمدو تلك الناحية التناسلية ويسرى إلى حياتهم الخاصة والعامة . وقد تصدر منهم أحياناً بعض التصرفات الشاذة بل الجنونية ولست أجد أصدق من المثل القائل « الجنون فنون » وهى فعلا فنون متنوعة الأشكال والألوان

والشذوذ التناسلى على أنواع كثيرة منها يسمى « homo-sexualité » ، ويشمل الذكور والأناث أى العلاقة الجنسية بين فردين من نوع واحد — أى بين رجل ورجل وامرأة وامرأة ومنها ما نسميه بالعادة السرية (جلد عميرة « Masturbation »

ونكتفى الآن بهذا القدر خوفاً من الملل ورفقاً « بحياء » بعض القراء وإن كان لا حياء فى العلم كما لا حياء فى الدين .

(باريس) فضل أبو بكر

ابراهام لنكولن

هدية الأحرار إلى عالم المدنية

يقدمه الأستاذ

محمود الخفيف